الألكسياد مصدراً لدراسة تاريخ سلطنة سلاجقة الروم (463 – 512هـ / 1071 – 1118م)

فؤاد عبدالرحيم الدويكات *

ملخص

تهدف هذه الدراسة لتجلية كتاب المؤرخة أنا كومنينا (الألكسياد) بوصفه أهم مصدر بيزنطي أرخ لسلطنة سلاجقة الروم في الفترة ما بين 463–512هـ/1071–1118م، من خلال التعريف بالمؤرخة، وبيان ملامح المنهج الذي اختطته في كتابها، والتعرف إلى مادتها التاريخية عن سلاجقة الروم، والمصادر الأساسية التي استقت منها هذه المادة، وذلك في محاولة لإبراز الجديد من الحقائق والمعلومات التي أغفلتها المصادر الأخرى عن سلاجقة الروم.

الكلمات الدالة: كومنينا، ألكسياد، سلاجقة الروم، بيزنطة.

Auther Alexiad as a Source to Study the History of the Rum Seljuk Sultanate (463 – 512 AH / 1071 – 1118 CE)

Fwaad Abd Alraheem Al-Dwaikat

Abstract

This paper aims to study the Alexiad book, written by the historian Anna Comnena, as one of the most important Byzantine source of the history of the Rum Seljuk Sultanate in the period 463 – 512 AH / 1071 – 1118 CE. The paper introduces the historian and her methodology. Also, it studies the book's historical account on Rum Seljuks and the main sources that were used. This aims to introduce new facts and information on the Rum Seljuks that other sources have neglected.

Keywords: Comnena, Alexiad, Rum Seljuk, Byzantium.

* قسم العلوم الاجتماعية، كلية الآداب، جامعة طيبة، المدينة المنورة، السعودية.

تاريخ تقديم البحث: 11/7 /2018 م. تاريخ قبول البحث: 29 /2019/4م .

© جميع حقوق النشر محفوظة لجامعة مؤتة، الكرك، المملكة الأردنية الهاشمية، 2020م.

المقدمة:

تحتل سلطنة سلاجقة الروم(708–470هـ/1077–1308م) مكانة بارزة في التاريخ الإسلامي، باعتبارها أقدم دولة إسلامية تأسست في آسيا الصغرى، مما نتج عنه تغيير الواقع التاريخي والجغرافي والديموغرافي للمنطقة، وهي أول دولة إسلامية تصدت لجموع الحملة الصليبية الأولى قبل أن تدخل بلاد الشام سنة490هـ/1096م.

ورغم ما يمثله تاريخ هذه السلطنة من أهمية فقد كان موضع تجاهل من جانب المصادر الإسلامية، وخصوصاً المرحلة الأولى من عمر السلطنة والممتدة من (470–584هـ/1077–1188م)، إذ لم أجد مؤرخاً مسلماً معاصراً لهذه الحقبة في آسيا الصغرى يروي أحداثها وتفاصيلها. والمصدر الوحيد الذي عني بالتأريخ لسلطنة سلاجقة الروم هو الأوامر العلائية لابن بيبي من القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، لكن مؤلفه لم يتمكن من تدوين أحداث الحقبة الأولى؛ لأن المصادر الأساسية المعاصرة لها قد أعيته، ولم يكن بوسعه كما ذكر الاعتماد في التأريخ لتلك الفترة على أقوال النقلة وأقاصيص السمار لبعد عهدهم من تلك الأحداث، فضلا عما في أقوالهم من تباين واختلاف.

إزاء ندرة المصادر الإسلامية التي عنيت بالتأريخ لسلاجقة الروم وتتبع أحوالهم، لم يعد هناك مفر من اللجوء إلى المصادر الأجنبية وفي طليعتها المصادر البيزنطية من أجل الحصول على الكثير من معلوماتنا عنهم. فقد ظهر خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين/ الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين مجموعة من المؤرخين البيزنطيين الذين أبدوا اهتماماً ملحوظا بالتأريخ للسلاجقة، ويبدو أن فتوحاتهم في أرمينية والأناضول ونجاحهم في تأسيس دولة سلاجقة الروم كانت سبباً في الاهتمام بهم، فصنفوا حوليات تاريخية حفظت لنا جانبا جيداً من تاريخ هذه الدولة، ولعل أبرزهم: ميخائيل بسللوس(Michael Psellus)(4.9–471هـ/1018–1078م)، وميخائيل الأتالياتي(Michael Attaliates)، ويوحنا سكيليتزيس(Jean Skylitzes)(442– هـ/1050– م)، ونقفور برينيوس(Brenneas Nicephorus)(473–532هـ/1080–1137م)، ولم يكن هؤلاء مفتقرين إلى المعلومات حول جيرانهم بحكم احتكاكهم بهم، لذلك دونوا في مصنفاتهم الكثير عنهم.

ورغم أهمية هذه المصادر إلا أنها لم تلق الاهتمام والعناية الكافيين من جانب الباحثين العرب من حيث الترجمة والتحقيق والدراسة، من هنا جاءت الرغبة في الاستزادة من البحث بدراسة مصدر أساسي من المصادر البيزنطية، ألا وهو كتاب (الألكسياد) الذي أرخ لحقبة زمنية محددة تكاد تكون مجهولة عن سلطنة سلاجقة الروم وسلاطينها الأوائل لم ترد في المصادر الأخرى، وقد اعتمدت المؤلفة في الكتابة عنهم على ما كان تحت يديها من وثائق وسجلات ومصادر بيزنطية بالغة الأهمية، وبذلك سد ثغرة هامة في تاريخ السلطنة خلال هذه المرحلة.

تهدف هذه الدراسة لتسليط الضوء على هذا المصدر، من حيث: التعريف بالمؤلفة، ومنهجها، والمصادر التي استقت منها معلوماتها عن سلاجقة الروم، وأبرز ما قدمته من معلومات عنهم. لإبراز الجديد من الحقائق والمعلومات التي أغفلتها المصادر الأخرى.

حياة المؤرخة أنّا كومنينا:

أمدتنا المؤرخة اليونانية في كتابها بمادة ضافية عرفت بسيرة حياتها، ومنها تبين أن مولدها كان فجر يوم الأحد جمادى الأولى 476هـ/ الأول من ديسمبر (كانون أول) 1083م، في الحجرة الأرجوانية بورفيرجينيس (Porphrogenius) في قصر بلاشرن (Blachernes) في القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية (Comnena, 2004, p. 251 & Nichole, 2003, p. p. 184-185)، وهي الإبنة البكر للإمبراطور البيزنطي الكسيوس الأول كومنين (Alexius I Comnenus) (474-512هـ/1081-1118م)، والإمبراطورة إيرين دوكاس (Irene Doukaina) (ت521هـ/1127م) (Comnena, 2004, p. 25, 623). وفي لحظة من المشاعر الجياشة وضع الإمبراطور التاج على مفرق صغيرته في إشارة صريحة منه بأنها ستخلفه على عرش الإمبراطورية(Comnena, 2004, p. 251) .

وكانت إذا تحدثت أو كتبت عن نفسها فإنها تكتب بكل ثقة واعتزاز، تقول: "كنت أعظم من ولد به- المخدع الإمبراطوري- وتحوطني أعظم مظاهر التعظيم" (Comnena, 2004, p. 623).

تربت في بيئة مترفة، وترعرعت في مهاد النعمة والأبهة الملوكية (Comnena, 2004, p. 25)، يغمرها حب أبويها (Comnena, 2004, p. 251)

وكانت معظم الوقت ملازمة لهما(Comnena, 2004, p. 576). وبعد ولادة أختها الثانية مريم (Comnena, 2004, p. p252, 637) ، اشتدت لهفة أبويها على ذكر يولد لهما فكان مولد يوحنا المعروف بالثاني (John II) سنة 480هـ/ 1087م، وكان مولده سبباً في تحول التاج إليه بدلاً منها، إذ أن الإمبراطور الكسيوس أقام ابنه يوحنا في ولاية العهد وهو ما يزال حياً، لكن زوجته لم تكن راضية بذلك.-252 p. p 2004, Comnena,) (253,477& Majhūl, 1986, p. 106 ، ومن هنا كره أنا كومنينا لأخيها يوحنا، ثم رزق الإمبراطور بثالث بناته الأميرة أيدوكيا (Eudokia) والأخيرة ثيودورا (Theodora). (Comnena, 2004, p.635)، كما رزق بمولود هو الأمير أندرونيكس(Andronikos)، أحب أخوتها إلى نفسها(609-608 p. p 2004, Comnena,) ومن بعده إسحق (Isuac)، الذي لم ترد عنه أية إشارة في كتابها ولعل وقوفه إلى جانب يوحنا ومساعدته في الوصول إلى العرش يفسر عدم حديثها عنه في الألكسياد. .(Choniates, 1984, p. 7)

وفي الثانية عشرة من عمرها خطبت إلى قسطنطين ابن الإمبراطور السابق ميخائيل السابع دوكاس(Constantine Doukas) لكن وفاته سنة 488هـ/ 1095م حالت دون إتمام زواجهما (Comnena, 2004, p. p132-133).

ولما بلغت الرابعة عشرة من عمرها 491هـ/1097 م، تزوجت من القائد والمؤرخ الأرستقراطي المولد والنشأة نقفور برينيوس (Nicephorus Brenneus)، وأنجبت منه أربعة أولاد، ولدان هما: الكسيوس ويوحنا، وبنتان وهما: ايرين ومريم (Comnena, 2004, p. 282. & Nichole, 2003, p. 185).

بعد وفاة والدها الإمبراطور الكسيوس كومنين 512هـ/ 1118م، عملت كومنينا بدعم ومساندة والدتها الإمبراطورة إيرين على تولية زوجها نقفور برينيوس العرش بدلاً من أخيها (Majhūl, 1986, p. 106)، ولم تتطرق كومنينا في كتابها لما قامت به للحيلولة دون انتقال العرش إلى يوحنا، وإنما أشار لذلك المؤرخ البيزنطي خونياتس والمؤرخ الرهاوي المجهول (Choniates, 1984, p. p.5-7.& Majhūl, 1986, p106)، ويبدو أن زوجها لم يكن متحمساً للاستئثار بالسلطة لذلك لم يفعل شيئًا لإنجاح مساعي زوجته ووالدتها .Choniates, 1984, p)

(p5-7 ، وإن انفرد المؤرخ الرهاوي المجهول بالحديث عن عداوة نشبت بين يوحنا ونقفور أفضت إلى قيام يوحنا بنفي زوج أخته (Majhūl, 1986, p.107)، إلا أن رواية المؤرخ خونياتس ورواية كومنينا تؤكد استمرار علاقة نقفور برينيوس بالإمبراطور يوحنا الثاني (512–538هـ/1118–1143م)، ومشاركته إلى جانبه في العديد من الأعمال العسكرية آخرها الحملة التي قادها الإمبراطور يوحنا الثاني على بلاد الشام 532هـ/ 1137م، بعدها توفي نقفور برينيوس زوج الأميرة أنا كومنينا(Comnena, 2004, p.p. 27-29.& Choniates, 1984, p.p .5-7) .

بعد وفاة والدتها إيرين وزوجها نقفور ازدادت العلاقة سوءاً بينها وبين شقيقها الإمبراطور يوحنا، وظهر النقد المقنع له ولسياسته في إدارة الإمبراطورية، من بين سطور مؤلفها، وأحد الأدلة المشيرة لذلك الفقرة التي جاء فيها: "سارت الأحوال بعد موته – الكسيوس– سيراً مخالفاً كل المخالفة عما كانت عليه في حياته، وانتهت إلى حال من الاضطراب... ما كاد يرحل عن هذه الدنيا حتى تلاشت جميع هذه النعم وانتهت إلى العدم بسبب حماقة الذين تولوا العرش من بعده"(Comnena, 2004, p. 562) ، وهذا ما آثار غضب يوحنا، الذي أقدم على وضعها في أحد الأديرة ومنعها من الاتصال بالناس، وأشارت لذلك بقولها: "كان يمنعهم من لقائي خوفهم من السلطات الحاكمة التي فرضت علينا أن نحتجب فلا يرانا أو يزورنا أحد من الناس" (Comnena, 2004, p. 577).

التكوين المعرفي للمؤرخة كومنينا:

نشأت المؤرخة كومنينا تنشئة علمية وأصابت حظاً وفيراً من المعارف الرفيعة في ميادين العلم المختلفة، وجدت واجتهدت في طلب العلم، وتباهت في مقدمة كتابها بسعة الاطلاع، "وليس من قبيل التباهي ولا الإعلان عن النفس أن أشير إلى ما حبتني به الطبيعة، ولا ما أسعفني به شغفي بالمعرفة" (Comnena, 2004, p. 25) .

تعلمت كومنينا كل ما يمكن تعلمه في زمانها، فكانت كثيرة الميل للأدب، واعتنت بدراسة اللغة اليونانية والبلاغة والخطابة والشعر، كما اعتنت بالفلسفة وتعمقت في كتابات أرسطو وأفلاطون (Comnena, 2004, p. 25, 369) .

ولما كان فهم مؤلفات أفلاطون يستلزم معرفة عامة بقواعد الرياضيات والهندسة والموسيقى فقد ألمت كومنينا بشيء من هذه العلوم (Comnena, 2004, p. 369 & Beinz, 1957, p. 208).

وقد ورد في كتابها ما يدل على اعتنائها بالعلوم الطبية، فكانت تناقش الأطباء حول سبل العلاج الواجب تقديمها للإمبراطور الكسيوس في مرض موته(Comnena, 2004, p. p631-635) ، هذا إلى أنها، صرفت جزءًا من وقتها لتعلم فن التنجيم(Comnena, 2004, p. 249) .

إلى جانب سعة اطلاعها وتمكنها في الكتاب المقدس الذي أقبلت على دراسته والتعمق به بتأثير والديها من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن والدها حين أصلح نظام التعليم في الإمبراطورية أحل الكتاب المقدس المكانة الأولى في الدراسة.(Comnena, 2004, p.p 224-225 & Beinz, 1957, p.215) ، وهي تكثر في تاريخها من الاقتباس من الكتاب المقدس، وآباء الكنيسة، والمؤلفات الدينية الأخرى. (Comnena, 2004, P.72, 125, 211, 228).

ويظهر من ثنايا كتابها أنها لم تكن ملمة باللغات الأجنبية التي كانت شائعة في زمانها، ويبدو أنها نظرت بازدراء للغات الأخرى وبخاصة اللاتينية، وهذا واضح من قولها: "اتجاوز عن إيراد – أسماء قادة الحملة الصليبية الأولى– لعدم قدرتي على رسم منطوق أسمائهم البربرية (Comnena, 2004, p. 404, 516).

وفاتها:

لم تفصح المصادر البيزنطية عن الظروف التي أحاطت بوفاة المؤرخة كومنينا. كما أنها لم تعين تاريخ وفاتها، إلا أن أحد الدارسين ذكر أنها توفيت سنة 548هـ/1153م (Nichole, 2003, p.185) ، مما يعني أنها عاشت سبعين سنة.

منهج كومنينا في الألكسياد:

يتضح من خلال دراسة الكتاب ملامح المنهج الذي سارت عليه المؤرخة في (الألكسياد) سواء من حيث جمع المادة التاريخية، أو من حيث نقدها وتحليلها.

أما عن خطة الكتاب، فينتظم في مقدمة وخمسة عشر كتاباً، وضم كل كتاب عدداً من الفصول، وتجلت مهارتها التنظيمية في العناوين التي وضعتها لكل كتاب والمعبرة عن مضمونه لتعين القارئ على الوصول إلى المعلومة بيسر وسهولة، وتناولت في المقدمة سبب تصنيف الكتاب، فقد أرادت أن تخلد أعمال والدها، لأنها رأت أنه لا يجوز أن تبقى هذه الأعمال طي النسيان. بعد ذلك انتقلت لسرد وقائع تاريخها، وتحدثت في الكتاب الأول عن "حياة الإمبراطور الكسيوس كومنين منذ طفولته إلى أخريات حكم الإمبراطور نقفور الثالث بوتنياتس (Nicephorus III Botanciates) (471–474هـ/1078–1081م). أما الكتاب الثاني فتناول ثورة آل كومنين. وجاء الكتاب الثالث بعنوان "تولي الكسيوس والصراع بين عائلتي دوكاس وكومنين". وفي الكتاب الرابع تحدثت عن الحرب ضد النورمان (1082–1081م)، أما الكتاب الخامس فتابعت فيه الحديث عن الحرب ضد النورمان(1083–1082م) وأول نزاع بين الكسيوس والهراطقة.

وجاء الكتاب السادس بعنوان "الحرب ضد النورمان (1083–1082م). وخصصت الكتاب السابع للحديث عن الحرب ضد البشناق (1090–1087م). أما الكتاب الثامن فقد تناولت فيه الحرب مع السكيثيون (Scyths)، – وهم العناصر التي كانت تقطن شمال نهر الدانوب– في ليفنتيوم (29 أبريل1091م)، والمؤامرات ضد الإمبراطور.

وجاء الكتاب التاسع بعنوان "الحرب ضد السلاجقة وتقصد بهم سلاجقة الروم في آسيا الصغرى (1092–1094م)، ومؤامرة نقفور ديوجين ضد الإمبراطور (1094م). وفي الكتاب العاشر تحدثت المؤرخة عن "هرطقة جديدة، وحرب الكومان، والحرب الصليبية الأولى (1104–1097م). وخصصت المؤرخة الكتاب الحادي عشر للحرب الصليبية الأولى (1104–1097م). أما الكتاب الثاني عشر فتناولت فيه المؤرخة "الاضطرابات الداخلية، والحملة النورماندية الثانية على الأملاك البيزنطية (1107–1105م). وجاء الكتاب الثالث عشر بعنوان "مؤامرة هارون البلغاري ضد الإمبراطور، وهزيمة بوهميند الثانية، واتفاقية ديفول (1108–1107م).

وبخصوص الكتاب الرابع عشر فقد تحدثت فيه عن "الأتراك، والفرنجة، والكومان (Cumans)، والمانويون (1115–1108م). وتحدثت في الكتاب الخامس عشر عن انتصار الإمبراطور على الترك (سلاجقة الروم)، ودار الأيتام، وهرطقة البوجوميلية (Bogomils)، وأخيرا مرض الكسيوس وموته (1118–1116م).

تبين من دراسة (الألكسياد)، أن أسلوب المؤلفة ارتقى الذروة العليا من التأنق والتفنن، فصاغت مادتها بأسلوب فني رفيع، عكس أهمية الأدب في تقديم المادة التاريخية، وقد ترك أدباء وشعراء اليونان من أمثال هوميروس (Homer) أثراً واضحاً عند كومنينا من حيث اقتباسها لأساليب البيان التي استخدموها في صياغة مادتها التاريخية، يتضح ذلك من النماذج الكثيرة التي أوردتها في كتابها (Comnena, 2004, p. 99, 118, 121, 219).

اتسم منهجها بالحرص على اختصار المعلومات والروايات التاريخية التي ترى أن من سبقها أجاد في شرحها ولا حاجة إلى التفصيل فيها وإعادة تكرارها، وأحد الشواهد المشيرة لذلك، حادثة القبض على قائد حركة التمرد النورماندي في الأناضول روسّيل دي باليول (Roussel de Bailleul) 467هـ/1074م، فقد وصفها زوجها في كتابة وصفاً مفصلاً، لكنها عمدت في كتابها إلى اختصارها، قائلة: "سأورد روايتي في نطاق ما يتعلق بمؤلفي التاريخي هذا" (Comnena, 2004, p. 37) ، وثمة قرينة أخرى تبرز قدرتها على الاختصار وتتجلى في تناولها لمساعي والدها لكسب قائد سلاجقة الروم إلى جانبه " يمكن أن نلخص فيما يلي أبرز ما عمد إليه – الكسيوس– لاستمالة تتش في قتاله للمتمرد روسيل دي باليول" (Comnena, 2004, p. 38).

على صعيد النقد التاريخي، يمدنا (الألكسياد) بنماذج متعددة عن براعتها في نقد الروايات التاريخية التي استقتها من مصادرها الشفوية والمكتوبة لضبط الحقائق وتدقيق المعلومات الواردة فيها. ويبدو واضحاً أن تكوينها الفكري، وخبراتها المرتكزة أساساً على تحصيلها العلمي الرفيع، وحجم المادة التاريخية التي توفرت لها بوصفها ابنة الإمبراطور البيزنطي، ومشاركتها في الأحداث التي عاصرتها، لم تجعل منها مؤرخة عادية جامعة للحوادث ناقلة لما كتبه الآخرون، بل كانت دراسة ممحصة وناقدة للروايات التي جمعتها.

في ضوء ما سبق، فإن كومنينا لم تدع كثيراً من الروايات على عواهنها، فقد أدركت إدراكاً تاماً أن مصادرها قدمت روايات متناقضة حول أحداث معينة، فكانت تعرض تلك الروايات، ثم تبين أسباب التناقض بين المؤرخين، كقولها مثلاً :" لقد سمعت أناساً كثيرين يتحدثون عن أحداث هذه الفترة ويقصون من الأخبار ما يناقض بعضها بعضاً ويذهب كل

فريق في تفسير هذه الأحداث حسب ما يمليه عليه هواه الذي يتحكم فيه الميل، ورأيتهم جميعًا لا يتفقون على رأي واحد" (Comnena, 2004, p. 133).

ظهر من بعض القرائن أنها استخدمت منهج الترجيح في حال تعارض الروايات، وتتضح هذه السمة المنهجية من قولها: "توجد روايتان حول هذا الموضوع،... أما أحدهما وكانت واسعة الانتشار وهي أول ما طرق سمعي وتقول...، أما الرواية الأخرى التي سمعتها في شأن هذه القصة فلربما كانت أكثر إقناعًا" (Comnena, 2004, p. p67-68) .

لم تسلم كومنينا بصحة بعض الروايات التي أوردتها في كتابها، وإنما عبرت عن رأيها تعليقاً على تلك الروايات، كقولها مثلاً:" والرأي كل الرأي عندي وعند الكثير ممن ينشدون الحقيقة" (Comnena, 2004, p.133)، وكذلك قولها: "والرأي عندي أن الحامل له على إتباع هذا السلوك ما كان عليه من الجهل" (Comnena, 2004, p. 350).

حرصت على تحري الدقة في نقل الأخبار، وإذا شكت في صحة معلومة فإنها تلفت نظر القارئ إلى ذلك مستخدمه الألفاظ التي تُشعر بترددها في قبول الخبر أو عدم الجزم بصحته، تقول في معرض إشارتها إلى زوجة قلج أرسلان الأول (485-500هـ/1092-1106م)، سلطان سلاجقة الروم: "قيل أنها ابنة تزاخاس" (Comnena, 2004, p. 419). إقراراً منها بالشك في صحة المعلومة التي نقلتها.

أبدت المؤلفة مقدرة كبيرة في البحث عن المعلومة للوصول إلى الحقيقة، وإذا أعياها البحث فإنها تصارح قارئها بذلك، وتتجلى هذه السمة المنهجية في قولها: "أما من ناحيتي أنا فلم أستطع بأي حال من الأحوال حتى اليوم أن أتبين الحقيقة على وجه اليقين" (Comnena, 2004, p. 368).

بالرغم من تميزها ببعد النظر والحس التاريخي، إلا أنها تؤاخذ على عدم مراعاة الدقة في تأريخ الأحداث التي تدونها إلا نادراً، فهي تفتقر إلى المنهجية التاريخية القائمة على الدقة في تسجيل الحدث حسب اليوم والشهر والسنة، بل في الكثير من الأحيان تهمل تأريخ الحدث نهائيًا.

أدركت (كومنينا) أهمية الوثائق الرسمية كمستندات تاريخية، فأدخلتها في صلب كتابتها التاريخية، ومن الطرائق التي استخدمتها في نقل الوثائق، الاعتماد على معلوماتها دون إيراد نصوصها، مثال ذلك: رسالة الكسيوس كومنين القائد العام للجيش البيزنطي– آنذاك – إلى القائد السلجوقي مبيناً فيها ما سيحصل عليه سلاجقة الروم نظير تحالفهم مع بيزنطة للقضاء على حركة التمرد النورماندية في الأناضول (Comnena, 2004, p. 38).

وإما بذكر نص الوثيقة كاملاً، كرسالة الإمبراطور الكسيوس كومنين الى ملك ألمانيا هنري الرابع (Henry IV) (448-500هـ/ 1056–1107م) للتحالف مع بيزنطة في حربها ضد روبرت جويسكارد النورماندي (Guiscard Robert) (449-478هـ/1057–1085م) في إيطاليا (Comnena, 2004, p .p 158-160)، والنص الكامل لمعاهدة ديفول (Devol) بين الإمبراطور الكسيوس كومنين والأمير الصليبي بوهيمند الأول (Bohemond) إثر هزيمة الأخير في البلقان أمام القوات البيزنطية502هـ/1108م (Comnena, 2004, p. p 529-540). الأمر الذي يدل على وعيها التاريخي بأهمية الوثائق في كتابة التاريخ.

من ناحية أخرى فإن دراسة منهج المؤرخة (كومنينا) تثير التساؤل حول مدى التزامها كمؤرخة بالصدق والموضوعية والبعد عن الانحياز والتعصب من الناحية العملية؟

حاولت المؤرخة أن تضفي قدراً من المصداقية والموضوعية على كتابها، لكن هناك شواهد كثيرة في تاريخها قللت من مصداقيتها وموضوعيتها، وكشفت عن التعصب والانحياز عندها، إذ يظهر تحاملها الشديد بكل وضوح على سلاجقة الروم والتي تسميهم في كتابها "أبناء هاجر"(Comnena, 2004, p. 388). من باب التهكم والتقليل من شأنهم، وتطلق لتعصبها العنان حين تصفهم بأنهم "لا رب لهم" (Comnena, 2004, p. 160) ، و"أنهم أسرى الخمر والشراب وعبيد اللهو"(Comnena, 2004, p. 388) ، و"أنه تسيطر عليهم آلهة اللهو والعربدة والفسق واللذات الجنسية رغم ممارستهم الطهارة الجسدية"(Comnena, 2004, p. 389)، و"نعتهم بالكفار"(Comnena, 2004, p. 418). وفي مقابل ذلك يندهش القارئ لوجود شواهد وإن كانت قليلة تشيد بشجاعة سلاجقة الروم ومهاراتهم العسكرية التي مكنتهم من هزيمة الحملة الصليبية النورماندية في المعركة المعروفة باسم معركة مرسيفان (Mersivans)، الواقعة في منتصف الطريق

بين أماسيا ونهر هاليس سنة 494هـ / 1101م، تقول معلقة على نتيجة المعركة: "على هذه الصورة كانت روعة حملات الترك البطولية في مقاتلتهم النورمانديين"(Comnena, 2004, p. 442). ويبدو أن ما سببه هؤلاء لوالدها من متاعب في البلقان يفسر مشاعر المؤرخة وغبطتها للكارثة التي حلت بهم على أيدي سلاجقة الروم.

وفي تاريخها من الشواهد ما يؤكد أنها لم تكن موضوعية ويتجلى ذلك من سعيها لتزوير الحقائق التاريخية، إذ أن روايتها عن خطة الأمير الصليبي بوهميند الأول لإرغام قائد القوات البيزنطية تاتيكيوس(Taticius) وقواته على الانسحاب من أمام أنطاكية (Comnena, 2004, p.426)، في أوائل يناير (كانون الثاني)1098م/492هـ، ما هي إلا رواية مختلقة غايتها تبرير انسحاب القوات البيزنطية وعدم متابعتها القتال إلى جانب الصليبيين.

وثمة قرينة أخرى قللت من مصداقية كومنينا في (الألكسياد)، إذ لم تكن موضوعية تجاه الشخصيات الذين تعارضت مواقفهم مع مواقفها وطموحاتها السياسية ، إذ امتنعت عن الإشارة إلى أخيها إسحق، ولم تقدم عنه أي معلومات في كتابها، ولعل السبب وراء ذلك الدور الذي لعبه في مساعدة أخيه يوحنا للوصول إلى عرش الإمبراطورية وإفشال مساعيها لتوليه زوجها بدلاً منه، وهذا الجانب الذي تعمدت إخفاءه كشف عنه بجلاء المؤرخ البيزنطي نيكياتس خونياتس الذي ذكر بأن إسحق أكثر من ساعد يوحنا في الوصول إلى العرش(Choniates, 1984, p.7). الأمر الذي يؤكد أنها سمحت لمواقفها وآرائها السياسية أن تؤثر في كتابتها وكان ذلك على حساب الطرح الموضوعي.

مصادر كومنينا في الألكسياد:

استقت (كومنينا) مادتها التاريخية عن سلطنة سلاجقة الروم من مصادر عديدة، ويمكن حصرها حسب الأهمية في المصادر التالية:

الوثائق الرسمية البيزنطية:

اعتمدت المؤرخة كومنينا في حديثها عن سلاجقة الروم على الوثائق بصورة كبيرة، ويسر لها موقعها في القصر الاطلاع على كثير من الرسائل والمكاتبات والمراسيم

والمنشورات والسجلات ونصوص المعاهدات وأسرار الدولة، وهذه الوثائق تبرز القيمة العالية لتاريخ كومنينا، ومنها:

الرسائل الرسمية والمكاتبات المتبادلة بين الأباطرة والولاة والقادة وحكام المدن واحتوت هذه الوثائق على معلومات قيمة عن سلاجقة الروم وحروبهم في الأناضول، ومن ذلك الرسالة التي وصلت إلى الإمبراطور نقفور الثالث بوتنياتس (Nicephorus III Botanciates) (471-474هـ/1078–1081م) وتحمل خبر سقوط مدينة زيسيكس (Zesicus) من مدن الأناضول بيد سلاجقة الروم. "هلا أبلغت مولاي أن قد سقطت زيسيكس وأن كتاباً بهذا الخبر جاء الآن" (Comnena, 2004, p. 95).

ورسالة حاكم مدينة نيقية إلى الإمبراطور الكسيوس تنهي إليه خبر هجوم سلاجقة الروم على المدينة، "تاوله رسالة بعث بها حاكم ذلك البلد حينذاك تتضمن تقريرًا كاملاً بكل التحركات" (Comnena, 2004, p. 568).

ورسالة الإمبراطور الكسيوس إلى أحد قادته ويدعى دوكاس يحثه فيها على عدم التراخي أو الضعف في قتال أمير أزمير التركي(Comnena, 2004, p. 347) .

الأوامر والتوجيهات الرسمية التي كان يرسلها الإمبراطور إلى قادته، وتحثهم على توخي الحذر واليقظة التامة لمراقبة تحركات سلاجقة الروم ونقل أخبارهم إليه في الحال(Comnena, 2004, p. 559) .

تقارير القادة العسكريين الميدانيين التي تضمنت معلومات مفصلة عن سير معاركهم مع سلاجقة الروم، وكانت هذه التقارير تصل إلى الإمبراطور يومياً (Comnena, 2004, p.345) ومن الأمثلة عليها: تقرير القائد البيزنطي تاتيكيوس إلى الإمبراطور الكسيوس وتضمن تفاصيل الحملة العسكرية التي أرسلها السلطان ملكشاه بن ألب رسلان (465 – 485هـ/ 1072– 1092م) بقيادة برسق للاستيلاء على مدينة نيقية بعد مقتل سلطان سلاجقة الروم سليمان بن قتلمش(470– 479هـ/ 1077– 1086م) وإخراج نائبه منها (Comnena, 2004, p.261).

الرسائل المتبادلة بين الإمبراطور البيزنطي وسلاطين سلاجقة الروم، مثل، رسالة الإمبراطور الكسيوس كومنين إلى سلطان سلاجقة الروم سليمان بن قتلمش يلتمس منه المعونة العسكرية لمساعدته في حربة ضد النورمان (Comnena, 2004, p.213). وهذه الحوادث تؤكد اطلاعها على هذه الوثائق واستخدامها في تدوين أخبارها.

الرسائل التي كان يحملها السفراء، ومن الأمثلة عليها: الرسالة التي زعمت كومنينا بأن السلطان ملكشاه أرسلها إلى الإمبراطور البيزنطي تعرض عليه التحالف بينهما عن طريق المصاهرة، "واستقبل الإمبراطور مبعوث السلطان الذي أطلعه على محتوى كتاب السلطان" (Comnena, 2004, p. p. 254-255)، وكذا رسالة السلطان ملكشاه الثانية إلى الإمبراطور والتي أعادت طلب التحالف بينهما عن طريق المصاهرة (Comnena, 2004, p. p .262-263)، والرسالة التي بعث بها الإمبراطور مع سفرائه إلى السلطان وحملت إليه الرد على اقتراحاته، لكن حدث قبل وصول السفراء إلى خراسان أن سمعوا باغتيال السلطان فعادوا أدراجهم إلى بيزنطية (Comnena, 2004, p.264).

وكذلك الرسالة التي حملتها سفارة السلطان ملكشاه بن قلج أرسلان الأول (485–500هـ/1092–1107م) سلطان سلاجقة الروم إلى الإمبراطور البيزنطي تلتمس عقد الصلح بين الجانبين (Comnena, 2004, p.561). وكومنينا مطلعة على هذه الوثائق وتورد مضامينها بصورة دقيقة الأمر الذي يعطي كتابها أهمية كبيرة، وتفرد رواياتها عن معاصريها.

المصادر السماعية وشهود العيان:

استقت كومنينا جانباً كبيراً من مادتها التاريخية عن سلاجقة الروم من المصادر السماعية، ولعل أبرز من سمعت منهم: أبوها الإمبراطور، وأمها إيرين، وجدتها أنا دالاسينا (Comnena, 2004, p.p. 577-578)، فقد دونت في تاريخها مادة علمية عن سلاجقة الروم وتوسعهم في الأناضول بالاعتماد على ما سمعته من أبيها ذاته (Comnena, 2004, p. 37, 39-40, 49, 160-162,289)، حيث نقلت عنه تفاصيل استنجاده بسلاجقة الروم لمساعدته في قتال النورمان(474هـ/1081م) (Comnena, 2004, p.175).

كما روت نقلاً عنه تفاصيل ثورة نقفور بريني وس (Nicephorus Brenneas) واستعانة الإمبراطور نقفور الثالث بوتنياتس بسلاجقة الروم للقضاء على هذه الثورة، " كثيرًا ما سمعت الكسيوس يروى هذه القصة" (Comnena, 2004, p.52).

كما أطلعتنا على الكثير من التطورات السياسية والعسكرية التي حدثت خلال حقبة تفكك الوحدة السياسية لسلطنة سلاجقة الروم (485–479هـ/1086–1092م) من ما تردد لسمعها من القائد البيزنطي البارز تاتيكيوس (Comnena, 2004, p.256) ، بل أوردت أحياناً بعضاً من رواياته بذكر من حكاها له من مثل خبر حملة برسق 479هـ/ـ 1086م على مدينة نيقية التي وصلت لمسامعه من فلاح كان يعيش في منطقة بازيليا (Basileia) على بعد عشر مراحل من نيقية (Comnena, 2004, p.257).

كما أوردت تفاصيل مهمة عن توسع حاكم نيقية أبي القاسم على حساب بيزنطة مما سمعته من قائد عام البحرية البيزنطية يوستاسيوس الذي كان مكلفاً بحربه (Comnena, 2004, p.259).

كذلك استمدت بعض رواياتها عن توسع سلاجقة الروم في الأناضول من قادة وضباط الجيش البيزنطي الذين اكتسبوا خبرة عظيمة في قتال السلاجقة (Comnena, 2004, p. 36) ، أما هزائم بيزنطة على يد سلاجقة الروم وما نتج عنه من انهيار الجبهة البيزنطية في مواجهة السلاجقة، فقد صرحت بأنها سمعت هذه الأخبار من الجنود، "والواقع أني سمعت رجالاً من الجند أنفسهم، كما سمعت آخرين من ذوي السن الكبيرة يقولون أنهم لا يذكرون دولة هوت إلى الدرك الأسفل وسقطت إلى الحضيض سقوط هذه الدولة" (Comnena, 2004, p.156).

كما استمدت جانباً من معلوماتها من شهود العيان، وأشارت لذلك بالقول: "ما زال بيننا رجال على قيد الحياة، وهؤلاء ساهموا بقدر كبير في الأحداث، وقد أخذت منهم جزءاً غير ضئيل من كتابي هذا (Comnena, 2004, 575). ومن ذلك رواية عسكري بيزنطي يدعى كاميتزيس هرب من أسر السلاجقة إلى مدينة فيلادلفيا حيث كان يعسكر الإمبراطور فسيره إلى العاصمة وأمره أن يقص على أهلها خبر الانتصار على سلاجقة الروم، وحين وصل القصر الإمبراطوري قص على الإمبراطورة خبر الانتصار على

سلاجقة الروم، وفي اليوم التالي سار إلى ساحة قسطنطين وسط العاصمة وقص على الناس خبر الانتصار على السلاجقة (Comnena, 2004, p.p. 572-574) ، وهذا ما يجعل روايتها لهذه الأحداث على درجة كبيرة من الأهمية استنادا لمصدرها الأساس.

المشاركة الشخصية:

أتاح لها موقعها في البلاط الإمبراطوري أن تكون صانعة ومشاركة في الأحداث التي دونتها، وهنا سجلت هذه الأحداث مستخدمة صيغ المشاهدة والمعاينة، كقولها:" كنت حاضرة بنفسي(Comnena, 2004, p.631) ، وشاهدت بنفسي(Comnena, 2004, p.580)، ولقد رأيت بنفسي(Comnena, 2004, p. 369, 617)، وأنا حاضرة مجلسهما" (Comnena, 2004,576)، وبفضل مشاهداتها ومشاركتها في الأحداث استطاعت أن تجمع مادة كبيرة من كتابها (Comnena, 2004, p. p. 576-577).

المصادر المكتوبة:

استعانت كومنينا بمصادر مكتوبة لتكمل تاريخها، لكن لا نجد ذكراً لمصادر مكتوبة باستثناء كتاب زوجها القيصر نقفور برينيوس (532–473هـ/1080–1137م) والموسوم بـ " كتب التاريخ الأربعة (Historia libriquattuor) (Iskender, 1984, p.45). ومن المرجح استعانتها بمصادر بيزنطية أخرى لتكمل تاريخها، لكنها لم تحدد هذه المصادر. ويظهر اعتمادها على تلك المصادر من سياق حديثها عن مؤامرة نقفور ديوجينس(487هـ/1094م)، ابن الإمبراطور السابق رومانوس الرابع ديوجينس (Romanus IV Diogenes) (460–464هـ/1067–1071م) على أبيها، تقول" أفاض العديد من المؤرخين في كيفية ارتقاء أبيه عرش الإمبراطورية كما أفاضوا في ذكر صورة سقوطه. وسيجد القارئ في كتب هؤلاء المؤرخين تفصيلاً لكل ما يريد الإلمام به عنه (Comnena, 2004, p.358) ، وعلق سوتير على هذا الخبر في هوامش الترجمة الإنجليزية بقوله: " أن ما جاء في كتاب المؤرخ البيزنطي ميخائيل بسللوس (Michael Psellus) من أشد الكتابات وضوحاً في هذا الشأن(Comnena, 2004, p.370, Note. 6). مما يرجح اعتمادها على كتاب بسللوس: (التاريخ الزمني) (Chronographia). وقد تكون استعانت بمصادر أخرى غيره، لكنها لم تفصح عن تلك المصادر.

تاريخ سلطنة سلاجقة الروم:

أدى احتكاك السلاجقة ببيزنطة وهزيمتها في معركة ملاذكرد 463هـ / 1071م وقيام دولة سلاجقة الروم، بإرغام المؤرخين البيزنطيين على الالتفات إلى السلاجقة ودراسة شيء من تاريخهم (Ranciman, 2008, p. 404)، وهو ما يفسر اهتمام كومنينا بهم وبما دونته عنهم من تسجيل تاريخي وتوثيقي مفصل خلال الفترة التي يغطيها كتابها(512–463هـ/1071–1118م)، فعلى سبيل المثال، يوجد في هذا الكتاب معلومات يقينية عن فتوحاتهم في الأناضول والتي تمت في عهد سليمان بن قتلمش مؤسس الدولة، وتفردت بتحديد رقعة دولته التي سيطرت سيطرة تكاد تكون تامة على جميع المناطق الواقعة فيما بين البحر الأسود والبسفور من ناحية، ومياه بحر أيجة والشام من ناحية أخرى، وأصبح لهم النفوذ على جميع المعابر المائية التي تجري على طول حدود" بامفيليا– الواقعة على السواحل الجنوبية للأناضول–(Mostras, 2002, p.220) وكليكية(Comnena, 2004, p.44) كما تفردت بالإشارة إلى تطلعه للاستيلاء على القسطنطينية (Comnena, 2004, p.160)، إلا أن سليمان لم يمتلك أسطولاً في البحر الأمر الذي حال بينه وبين مهاجمة المدينة.

ومن الجوانب التي تناولتها حملاته على الريف البيزنطي الأمر الذي أدى لهجرة السكان اليونانيين لأراضيهم والتوجه نحو الغرب(Comnena, 2004, p.p. 160-161)، فاستغل سليمان ذلك وشجع الترك على الهجرة إلى الأناضول، فازدادت أعدادهم خلال فترة قصيرة وشكلوا أغلبية سكانية. وهذا الجانب لم تنوه به كومنينا وإنما أشار إليه بشيء من التفصيل المؤرخ ميخائيل السرياني في حوليته(Al-Siyānī, 1996, Vol3, p. 131, 141).

ومن الجوانب التي سلطت عليها الضوء تدهور أوضاع الإمبراطورية البيزنطية بفعل توسع سلاجقة الروم في الأناضول(Comnena, 2004, p. 36, 44, 155, 156)، كما تحدثت عن تدخل سليمان في المنازعات بين المتنافسين على العرش البيزنطي، ووقوفه إلى جانب طرف على حساب الآخر، فازداد قوة ونفوذاً وبسط سيطرته على مناطق جديدة(Comnena, 2004, p. p. 36-42, 44-50).

أفاضت بالحديث عن سياسة والدها الإمبراطور الكسيوس للحد من توسع سلاجقة الروم في الأناضول (Comnena, 2004, p.156, 157, 160)، وحملهم على الانسحاب من مناطق

البسفور الشرقية، وأظهرت الوسائل والأساليب التي لجأ إليها لكسب ودهم واستمالتهم إليه بالصلات التي وصلهم بها(Comnena, 2004, p.162) مما يفهم منه جلياً دفعه الجزية لسليمان لتحقيق هدفه، لكن ذلك لم يوقف توسعهم، وهنا لجأ للمزج بين الأساليب الدبلوماسية والقوة العسكرية(Comnena, 2004, p.p161-162) ، وأشارت لإرساله حملات بحرية خاطفة لمناطق البسفور الشرقية حققت بعض النجاح، وأمكن في النهاية توقيع اتفاقية بين الجانبين بموجبها أصبح نهر دراكون الحد الفاصل بين سلطنة سلاجقة الروم وبيزنطة(Comnena, 2004, p.162). ويبدو أن رغبة سليمان بن قتلمش في بسط نفوذه على الإمارات الإسلامية في الجزيرة الفراتية وشمال الشام كانت وراء قبوله لهذه الاتفاقية.

أمدتنا بمعلومات في غاية الأهمية عن العلاقات السياسية والعسكرية بين سلطنة سلاجقة الروم وبيزنطة من خلال حديثها عن سياسة سليمان بن قتلمش ودعمه لوالدها في حربه ضد النورمان 474 – 476هـ/ 1081– 1083م، وإرساله لقوات عسكرية ذات قدرات قتالية عالية بلغ قوامها سبعة آلاف رجل، وبفضل هذا الدعم تحقق النصر للإمبراطور الكسيوس وعاد في أوائل ديسمبر (كانون أول) 1083م/ 476هـ إلى عاصمته مكللاً بالنصر(Comnena, 2004, p.213) ، لكن كومنينا لم تكن موضوعية عندما أغفلت الحديث عن الامتيازات التي حصل عليها سليمان بن قتلمش مقابل هذا الدعم، وعلى حد تعبير (رنسيمان) نزعت إلى حذف كل ما من شأنه أن يسيء لسمعة والدها أمام منافسيه (Ranciman, 1997, Vol1, p.466). واختتمت كومنينا حديثها عن عهد سليمان بذكر تفاصيل النهاية التي آل إليها مؤسس دولة سلاجقة الروم ومقتله على يد تتش بن آلب أرسلان سنة 479هـ/ 1086م (Comnena, 2004, p. p. 253-254) .

ومن الجوانب التي أثارت اهتمام المؤرخة وأجادت في تصويرها الأساليب والفنون القتالية عند سلاجقة الروم، وهذه الأساليب لم تكن مألوفة عند الأوروبيين، ويبدو أنها استندت في الحديث عنها على ما سمعته من أبيها وزوجها.

ومن الأساليب التي أشارت إليها الهجوم على العدو كتلة واحدة، وهو الأسلوب المتعارف عليه في العسكرية الإسلامية بـ"الصف الواحد" وتتجلى براعة السلاجقة القتالية والتي لفتت نظر المؤرخة في الانتقال من نظام تعبئة قتالية لآخر بحسب مقتضيات

وظروف المعركة، وهنا تحدثت عن تقسيم أنفسهم لوحدات منفصلة بعضها عن بعض(نظام الكراديس)، وبمسافة معينة بين كل وحدة والأخرى، ومهاجمة الأعداء وهم يمتطون جيادهم ورميهم بالنشاب بكثافة كبيرة (Comnena, 2004, p.p. 49-50).

ومن أساليبهم القتالية التي تحدثت عنها تقسيم الجيش إلى قلب وميمنة وميسرة، وكان الجناحان الأيمن والأيسر والقلب تؤلف مجموعات عسكرية منفصل بعضها عن بعض، وإذا ما تعرضت الميمنة أو الميسرة للهجوم يندفع رجال القلب ومن ورائهم بقية العسكر في هجوم عاصف يشيع الاضطراب في صفوف العدو(Comnena, 2004, p.p. 602-603).

كما تحدثت عن براعتهم في استخدام الأسلحة، وتقرر بأن الأسلحة التي يستخدمونها في الحرب لا تشبه أسلحة الصليبيين، فهم لا يقاتلون بالرماح، ولكنهم يحدقون بالجيش احداقاً تاماً ثم يرمونه عن قسيهم، كما يدافعون عن أنفسهم بالسهام من مسافة قريبة، فإذا اشتد وطيس القتال جعل التركي من معه من الأسرى مرمى للنبال(Comnena, 2004, p .603).

وأثار إعجاب المؤرخة براعتهم في أساليب الكر والفر ومطاردة أعدائهم، وفي هذا السياق تؤكد، أن والدها كان يلح على قواته بعدم مطاردتهم مطاردة قد تذهب بهم بعيداً(Comnena, 2004, p. 602).، وكان التركي إذا طارد خصمه طارده بقسوة حتى يمسك به، أما إذا كان هو المطارد فإنه يرمي عدوه بالنبال فيصيب النبل الراكب أو حصانه، ثم أنه حين يقذف رمحه يقذفه بعنف فيصيب منه مقتلا إذ يدخل الرمح من جانب ويخرج من الجانب الآخر نظيفاً. هكذا كانت براعة التركي في حربه بالقوس(Comnena, 2004, p. 603)، وهذه المعلومات تظهر لنا أهمية ما سجلته كومنينا عن سلاجقة الروم في هذا الجانب.

يعد كتابها وثيقة مهمة للغاية لتناوله حقبة تفكك الوحدة السياسية لسلطنة سلاجقة الروم (479 – 485هـ/ 1086–1092)، واطلعتنا من خلاله على التطورات السياسية والعسكرية للسنوات الست التالية على مقتل سليمان بن قتلمش، ولعل ما تفردت به من معلومات عن هذه الحقبة، يعلي من شأن (الألكسياد) وأهميته مصدراً لا غنى عنه في دراسة تاريخ سلطنة سلاجقة الروم في هذه المرحلة (Comnena, 2004, p. p. 253-266).

كتابها من المصادر البيزنطية الرئيسة التي تناولت عهد السلطان قلج أرسلان الأول (485- 500هـ/ 1092- 1107م) ففيه الكثير من المعلومات المهمة التي لم ترد في المصادر الأخرى، ومع ذلك فقد شاب الاضطراب والغموض بعض الوقائع التي سجلتها عن فترة حكمه، ومن ذلك لرواية المقتضبة التي تناولت فيها هروبه وأخيه من أسر السلطان ملكشاه بن آلب أرسلان(465- 485هـ / 1072- 1092م) واستعادته لعرش أبيه، فقد ذكرت بأن سلطان خراسان الذي اغتاله الحشاشون كان قد ألقى القبض قبل اغتياله على ابني سليمان الكبير، فلما لقي أبوهما مصرعه فر الولدان من خراسان وبلغا سريعين مدينة نيقية (Comnena, 2004, p. 266).

إن مجرد النظر في هذه الرواية يظهر أنها لم تضبط الحقائق والمعلومات التي أوردتها، والثابت تاريخياً أن الذي اغتيل هو الوزير نظام الملك، وذلك في العاشر من رمضان 485هـ/ 19 ديسمبر (كانون أول) 1092م، قبل شهر تقريباً من وفاة السلطان ملكشاه والتي كانت ليلة الجمعة، شوال 485هـ/ 1092م (Ibnal-Athīr, 1995, vol10, p. 478, 482& Khwāndamīr,1988, p.244). فضلاً عن أن هروب قلج أرسلان وأخيه كان بعد وفاة السلطان ملكشاه وليس بعد وفاة والدهما، كما أنها أهملت تحديد السنة التي عاد فيها إلى نيقية واستعاد دولة أبيه. وتعليقاً على ما اعترى تاريخها من اضطراب في بعض الأحوال يذكر المؤرخ الإنجليزي (رنسيمان) بأنها لا تعتبر من الثقات حين تعالج الأحداث التي وقعت خارج حدود الإمبراطورية (Ranciman, 1997, Vol1, p .p. 465-466).

وحين يصل قلج أرسلان الأناضول تصبح معلوماتها أكثر دقة وتتناول بشيء من التفصيل إقامته في نيقية وما قام به لاستعادة دولة أبيه، فبعد أن أحكم قبضته على السلطة عزل بولخانيس شقيق أبي القاسم وعين أخاه محمداً كبير نوابه، وشرع بتقوية الدولة ومراعاة مصالحها(Comnena, 2004, p. 266).

تحدثت كومنينا عن إمارة أزمير الإسلامية، حديثاً اختصت به ولم يشاركها فيه أحد من المؤرخين، واعترف لها (رنسيمان) بالفضل في هذا المجال بقوله: " كنا لا نعرف شيئاً عن الأمير جكا وتسميه كومنينا تزاخاس (Tzachas) صاحب أزمير، لو لم يوجد

تاريخ كومنينا، مع أنه يجب الإقرار بأن بعض معلوماتها عنه متضاربة"(Ranciman, 2008, p. 404)، ويعنينا هنا ما يتعلق بسلاجقة الروم وحديثها عن نهاية أمير أزمير ذلك أن الكسيوس حين فشل في القضاء على هذا الأمير الذي شكل تحدياً حقيقياً له، لجأ إلى أساليب المكر والخداع التي اشتهر بها بإثارة القلاقل بينه وبين قلج أرسلان سلطان سلاجقة الروم، تقول كومنينا: "رأى أن إتمام هدفه يتطلب العمل على إثارة القلاقل بين تزاخاس والسلطان" (Comnena, 2004, p. 351)، فأرسل إليه رسالة خوفه فيها من أمير أزمير وحرضه عليه، ونجح كومنين في تأليب قلج عليه، فزحف قلج بقواته للقاء جكا، وهنا غدر به قلج وقتله بعد أن آمنه، ثم دخل الجانبان في مفاوضات انتهت بعقد الصلح بينهما (Comnena, 2004, p. p. 351-353). في حدود سنة 488هـ/ 1095م، وهي السنة التي شهدت قيام سلطان سلاجقة الروم بحصار ملطية (Al-Siyānī, vol3, p. 160 & Antochious, 1986, p.122). مستغلاً توقيعه المعاهدة مع بيزنطة والتي أتاحت له حرية التحرك شرقاً باتجاه الإمارات الإسلامية في الجزيرة الفراتية.

ويعد (الألكسياد) المصدر البيزنطي الرئيس للتأريخ للحملة الصليبية الأولى، فقد وصل إلى مسامع الإمبراطور الأخبار التي تتحدث عن قرب وصول عدد كبير من جيوش الصليبيين، وتخوف الإمبراطور من عبور هذه القوات لأراضيه، وأثبتت الأحداث صدق مخاوفه، ذلك أن الشطر الأول من الحملة الصليبية، حملة الدهماء والغوغاء ألحقت الخراب والدمار بأراضي الإمبراطورية في البلقان، الأمر الذي اضطره للعمل على حماية دولته، ويبدو أن الإمبراطور استشعر بأن الخطر الصليبي المحدق به بات يفوق خطر سلاجقة الروم، فبدأ اتصالاته الدبلوماسية، وكتب إلى السلطان قلج أرسلان يحذره من زحف جموع بطرس الناسك (Peter the Hermit)، التي عبرت مضيق البسفور باتجاه العاصمة السلجوقية، أورد هذه الحقيقة المؤرخ العظيمي بقوله:" كتب ملك الروم إلكسس إلى المسلمين يعلمهم بظهور الفرنج (Al-ʻUẓaymī , 1984, p.358)}، وفي عبارة أكثر وضوحاً كتب المؤرخ الرهاوي المجهول:" أرسل الملك ألكسس وأومأ إلى الأتراك الذين في نيقية وفي حدوده أن يقبلوا ويبيدوهم وهذا ما حدث فعلاً (Majhūl, 1986, Vol2, p. 74) .

وكومنينا تشير في روايتها إلى ذلك التحذير تلميحاً لا تصريحاً من خلال أشارتها إلى حصول قلج أرسلان على معلومات دقيقة عن هذه الحملة، تقول: "ولما كان يعرف أيضاً حب الكلت للمال

فقد استعان بخدمات رجلين أرسلهما إلى معسكر بطرس الناسك يعلنان إليه أن النورمان قد استولوا على نيقية،... فسادتهم الفوضى الشديدة (Comnena, 2004, p. 391)، وعند تفحص روايتها نجد بأن المعلومات التي حصل عليها قلج أرسلان كانت مبنية على أساس معرفة الإمبراطور وخبراته السابقة بطباعهم وأخلاقهم التي يصعب ضبطها، وبولعهم بالفوضى، وجشعهم للمال. الأمر الذي مكن قلج أرسلان من رسم استراتيجيته الكفيلة بالقضاء عليهم(Comnena, 2004, p. p. 391-392).

أمدتنا بمعلومات في غاية الأهمية عن الحملة الصليبية النظامية التي عبرت مضيق البسفور 491هـ/ 1097م، والتي اعتبرتها أهم إنجازات والدها على الإطلاق، إذ أن حملة الدهماء نبهت والدها إلى الخطر الذي يمكن أن تتعرض له الإمبراطورية من هذه الحملة، لذلك قامت استراتيجيته في التعامل معهم على حماية دولته من جانب، وأبرزت كومنينا رغبة والدها الإمبراطور في الاستفادة من الحشود الصليبية لإخراج سلاجقة الروم من الأقاليم والمدن التي فتحوها، لذلك فإن خطة إسقاط مدينة نيقية عاصمة سلاجقة الروم بحسب رواية كومنينا قد رسمت من قبل الإمبراطور نفسه، وأحيطت بسرية تامة، ولتحقيق ذلك قاد قواته بنفسه، وكان له ما أراد إذ أعاد سيطرة بيزنطة على نيقية في 26 يونيو (حزيران) 1097م). واستثمر هزيمة سلاجقة الروم واستعاد المناطق الغربية لآسيا الصغرى وهي أقاليم مسيا Mysia وأيونيا، وليديا وغرب فريجيا وبيثينيا(Comnena, 2004, p. p. 410-415, 416-422, 432-433).

كذلك تناولت الحديث عن المساعدات العسكرية التي قدمها قلج أرسلان لوالدها في حربه مع النورمان في البلقان أواخر عام498هـ/ 1104م، والدور الذي أسهت به هذه القوات في تحقيق النصر لبيزنطة على النورمان (Comnena, 2004, p.p. 515-518)، وأيدت المصادر الإسلامية حقيقية ما أوردته كومنينا عن هذه المساعدات Ibn &Qalānisī, n. d. p.p. 156-158 (Ibn al- al-Athīr, vol9, 104)، أما في الجانب الصليبي فقد تحدث المؤرخ وليم الصوري عن الدعم العسكري الكبير الذي قدمه قلج أرسلان لمساعدة الكسيوس في حربه ضد النورمان (Al-Ṣūrī, 1990, vol2, 526-527)، في حين لم تنوه مصادر الحملة الصليبية الأولى المعاصرة بهذا التعاون (&Al-Shārtrī, 1990, p.p. 142-143 (Tudepud,1998, p. p. 131-134).

بعد مقتل قلج أرسلان الأول 500هـ/1107م، مرت سلطنة سلاجقة الروم بمرحلة عصيبة لوقوع ابنه ملكشاه في الأسر، لكن ما لبث السلطان محمد بن ملكشاه (498–512هـ /1104– 1118م) أن أطلق سراحه لصغر سنه (Al-Siyānī, 1996, Vol3,164 & Antochious, 1986, p. p. 130-132) ، فاستعاد ملكشاه بن قلج أرسلان (504– 510هـ/ 1110– 1116م) عرش السلطنة، وأعاد تنظيم شؤون السلطنة، ويبدو أن السلطان الجديد أخذ على عاتقه تقوية السلطنة واستعادة ما فقدته من أقاليم على يد بيزنطة، وفي سبيل ذلك قاد حملة على فيلادلفيا والمناطق المطلة على بحر مرمرة (Comnena, 2004, p. p. 558-559). ولكنها باءت بالفشل، ووصفت كومنينا فشل حملته "بأنها نكبة ما أن بلغت مسامع السلطان ووقف على كثرة من قتلوا من رجاله حتى بعث بسفارة تلتمس عقد الصلح بين الجانبين" (Comnena, 2004, p. p. 561-562)، لكن الهزيمة لم تثنه عن قصده، إذ عاود مهاجمة بيزنطة وكان هدفه هذه المرة استعادة عاصمة سلاجقة الروم نيقية، فأغارت قواته عليها، وعلى المناطق المتاخمة لبحيرة نيقية وبروسه، وأوسعها نهباً وتخريباً لكن الكسيوس تمكن من هزيمته (Comnena, 2004, p. p. 568-574).

ثم أعاد الكرة ثانية وهاجم الأراضي البيزنطية لكن حملاته لم تؤدِ لنتائج حاسمة وإنما قادت لعقد الصلح بين الجانبين (Comnena, 2004, p.p. 593-594).

وآخر ما دونته كومنينا عن عهد السلطان ملكشاه الثورة التي قادها ضده أخوه مسعود لخلعه عن العرش، فقرر العودة إلى عاصمته لمواجهة المؤامرة، وتشير كومنينا إلى العرض الذي تقدم به والدها للسلطان ملكشاه بأن ترافقه فرقة من القوات البيزنطية لمساعدته في حرب أخيه لكنه رفض الاقتراح وعاد بقواته وفي طريق العودة وقع في كمين نصبه له أخوه وقبض عليه وسملت عيناه وانتهت حياته على هذه الصورة (Comnena, 2004, p. p. 612-614). وعند هذا الحد ينتهي ما دونته كومنينا عن سلطنة سلاجقة الروم.

خاتمة البحث:

خلصت الدراسة إلى عدد من النتائج نجملها على النحو الآتي:

أبرزت الدراسة ملامح المنهج الذي عالجت من خلاله المؤرخة موضوعات كتابها، وكشفت أيضاً عن الروح النقدية التي تميزت بها، وبراعتها في نقد الروايات التاريخية التي استقتها من مصادرها الشفوية والمكتوبة لضبط الحقائق وتدقيق المعلومات الواردة فيها.

عنيت الدراسة بالتركيز على المصادر التي استقت منها مادتها التاريخية عن سلاجقة الروم، وهي مصادر متنوعة، ومنها: الوثائق الرسمية البيزنطية، والمصادر السماعية، وشهود العيان، والمعاصرة، والمشاهدة، والاطلاع الشخصي. الأمر الذي جعلها تنفرد بمعلومات لا نجدها في مصادر أخرى معاصرة أو لاحقة.

تاريخها أهم مصدر بيزنطي أرخ لسلطنة سلاجقة خلال المرحلة الأولى من عمر السلطنة، ومؤلفته معاصرة لهذه المرحلة شهدت فيها الحوادث وسجلتها من خلال مضانها الأولى، لذلك ارتقت رواياتها إلى درجة كبيرة من الوثائقية.

جاء تناول المؤرخة لسلطنة سلاجقة الروم من خلال تناول عهود سلاطينها بالترتيب، بداية من مؤسس السلطنة وانتهاء بمقتل السلطان ملكشاه بن قلج أرسلان وتوليه أخاه مسعود وسياستهم الداخلية، وعلاقاتهم الخارجية مع بيزنطة والدول المجاورة. ولهذا يعد تاريخها مصدراً لا غنى عنه لدراسة أحوال سلطنة سلاجقة الروم في مرحلتها الأولى.

رغم ما اشتهرت به من تحري الدقة فيما دونته عن سلاجقة الروم، إلا أن هناك العديد من الشواهد تظهرها ما اعترى بعض الوقائع التي سجلتها من لبس وغموض واضطراب. رغم قربها الزمني منها أو معاصرتها لها.

حاولت المؤرخة اضفاء قدرٍ من الموضوعية على كتابها، لكن الدراسة أظهرت أنها لم تستطع أن تكبح جماح تعصبها، فأظهرت موقفاً متعصباً ضد سلاجقة الروم من خلال الأوصاف والنعوت السلبية التي نعتتهم بها. كما ظهر افتقارها إلى الموضوعية من خلال تأثر رواياتها بالميول والأهواء السياسية والأطماع الشخصية. الأمر الذي يؤكد أن ميولها وتحيزها كان على حساب الطرح الموضوعي. وأنها كانت مدفوعة بدوافع سياسية وأطماع شخصية وليس لاعتبارات موضوعية.

Reference:

Ibn Al-Athīr, A. (1995). Al-Kāmil fī al-Tārīkh, 2nd edition, vol.10, ed. Muhammad Ahmad Daqqaq, Beirut: Dar al-Kutub al-'Ilmiyyah,.

Iskender, F. (1984). Al-Bīzantiyyūn wa al-Atrāk al-Salājiqah fī ma'rakat Malādhkurd fī Muṣannaf Niqfūr Brīnius, al-Zaqaziq University.

Beinz, N. (1957). al-Imbarāṭūriyyah al-Bīzanṭiyyah, ed. Husayn Mu'niz and Yusuf Zayed, 2nd edition, Cairo.

Tudepud, P. (1998). Tārīkh al-Riḥlah Ilā Bayt al-Maqdis, ed. Husayn Atiyyah. 1st edition, Alexandria: Dar al-Ma'rifah al-Jami'iyyah.

Khwāndamīr, M. (1988). Rawḍat al-Ṣafā fī Sīrat al-Anbiyā' wa al-Mulūk wa al-Khulafā', ed. Ahmad Abdelqader al-Shadili, 1st edition, Cairo: al-Dar al-Misriyyah lil Kitab,.

Ranciman, S. (2008). "Al-Mu'arrikhūn al-Bīzanṭiyyūn wa al-Atrāk al-'Uthmāniyyūn" in Mu'arrikhūal-'Arab wa al-Islām Ḥattā al-'Aṣr al-Ḥadīth, ed. Suhayl Zakkar. 1st edition. Damascus: Dar al-Takween.

Ranciman, S. (1997). Tārīkh al-Ḥurūb al-Ṣalībiyyah, ed. Al-Sayyid al-Baz al-'Urayni. Beirut: Dar al-Thaqafa.

Al-Siyānī, M. (1996). Tārīkh Mar Mikhā'īl al-Kabīr, ed. Gregorius Simon. 1st edition, Aleppo: Dar Mardin.

Al-Shārtrī, F. (1990). Tārīkh al-Ḥamlah Ilā al-Quds, ed. Ziyad al-Asali, Amman: Dar al-Shuruq.

Al-Ṣūrī, W. (1990). Tārīkh al-Ḥurūb al-Ṣalībiyyah, ed. Suhayl Zakkar, Damascus: Dar al-Fikr,.

Antochious, Abū al-Faraj Gregorious al-Malṭī. (1986). Tārīkh al-Zamān, ed. Ishaq Armalah, 1st edition, Beirut: Dar al-Mashriq.

Al-'Uẓaymī, M. (1984). Tārīkh Ḥalab, ed. Ibrahim Za'rour, Damascus.

Ibn Al-Qalānisī, Abū Ya'lā Ḥamzah Ibn Asad al-Tamīmī(n.d.) Tārīkh Ibn al-Qalānisī al-Ma'rūf bi Dhayl Tārīkh Dimashq, ed. Amdroz. Cairo: Maktabat al-Mutanabbi.

Comnena, A. (2004). Alexiad, ed. Hasan Habashi, 1st edition, Cairo: al-Majlis al-A'la lil Thaqafah.

Majhūl, (1986). Tārīkh Al-Rahāwī al-Majhūl, ed. Alber Abona, 1st edition, Baghdad: Maktba'at Shafiq.

Mostras, S. (2002). Al-Mu'jam al-Gughrāfī lil Imbratūriyyah al-'Uthmāniyyah, ed. Isam al-Shahadat, Beirut: Dar Ibn Hazm.

Nichole, D. (2003). Mu'jam al-Tarājim al-Bīzanṭiyyah, ed. Hasan Habashi, 1st edition, Cairo: al-Hay'ah al-Misriyyah al-'Ammah lil Kitab.

Choniates, Niketas, (1984). Annals of Niketas Choniates, TR. Magoulias, H. J.,